الفصل الثّالث
حاج الماحي واللُّغة

أمر اللُّغة العربيّة في السّـودان شـائك، والعربيّة المسـتخدمة في عاميّة أهل السّودان قديمة عريقة، لا يعرف عرب الحاضر بعضـها (مثل الزّعل بمعنى النّشـاط) وغـاب عن المعـاجم الكبرى الكثير من ألفـاظهـا (مثل الزّين والهبق والهجـا) والعـاميّـة الدّارجة في السّودان هي العربيّة المعلومة إلاّ ما أصاب ألفاظها من تحريفأو ما أخذته من اللّغات السّـودانيّة االقديمة كالنوبيّة والبجاويّة والفوراويّة أو ما أضـيف إليها من دخيل كألفاظ التّركيّة والفارسـيّة والأوربيّة. ولئن ذهب بعض علمائنا كالبروفسـور عبدالله الطيّب إلى أنّ العربيّـة في السّـودان أقدم منهـا في جزيرة العرب فقد ذهب بعض الباحثين من غير السّـودانيين إلى أبعد من هذا، قال الأسـتاذ الأديب المصـري محمّد فريد أبو حديد في تقديمه لديوان شـاعرنا الشّـيخ محمّد سـعيد العباسـي: "رأيت نخبة من فضـلاء أدباء السّـودان وقرأت لهم وسـمعت منهم، وكنت في كلّ مرّة أزداد إيماناً أنّ الصُّور الَّتي تلمع في شـعرهم تنبعث عن فنٍ أصـيلٍ، ومن نبعٍ فياضٍ. بل لقد ذهب بي الخاطر أحياناً إلى أن ألمح في شـاعر السّـودان أديباً أبعد أصـلاً في العربيّة من سائر الأدباء.

لقد سمعت في شعر السّودان البدوي وفي أهازيجه الشّعريّة من صيغ الألفاظ ومن صـور التّعبيرما لا يتوافر إلاّ لقوم لهم لسـانٌ عربيٌّ أصـيل من أرومة عربيّة عريقة. لقد سـمعت في السّـودان من شـعراء الشّـعب قوماً ينطقون لعامّة النّاس، بما لا يدركه في غير السّـودان إلاّ المتأدِّب المِتوفِّر على دراسـة اللّغة؛ فهو ينشـد للنّاس بلغة عاميّة متحدّثاً عن الشّـادن والرّحال والمسـارب، وما أظنّ عامّة شـعب عربيّ آخر تدرك لهذه الألفاظ معنى.

ومن ذلك ذهب بي الخـاطر أحياناً إلى أنّ أهل السّـودان العربيّ إنّما ينطقون بلسـان قديم، ويقترفون العربيّة من أصـل أصـيل. بل لقد خطر لي أنَّهم اسـتقوا العربيّة عبر البحر، قبل أن يرتووا من منهل الإسـلام. وليس ببعيد أن يسـتطيع أحد الباحثين إثبـات قِدَم العروبـة في السّـودان. وأنّ القوم قد عاصـروا في الجاهليّة إخواناً كانوا يتغنّون معاً بلسانٍ عربيّ مبين". (مقدّمة ديوان العبّاسي).

قلتُ: ومن المصـادر الَّتي يعنيها هذا الأديب الفاضـل والَّتي نفزع إليها في الاسـتشـهاد على فصـاحة ألفاظ العاميّة السّـودانيّة الدّواوين القديمة لشـعراء الدّوبيت ودواوين مُدّاح جنـاب الحبيب ومنها ديوان حاج الماحي. وقد عوّل عليه الدّكتور عون الشّـريف قاسـم عليه الرّحمة في (قاموس اللّهجة العاميّة السّـودانيّة) تعويلاً كبيراً وشـحن مواده بشـواهد من شـعر حاج الماحي وأضـرابه ولكن بمسـح عاجل يدرك الدّارس أنّ شعر حاج الماحي كان له قَصَبُ السَّبْق ونصيب الأسد والقِدْحُ الْمُعَلَّى بل

"والتَّدان" في ذلك المعجم النّفيس الّذي هو في لغة أهل السّودان كلسان العرب في لغة العرب. ولو تطوّع باحث بتتبُّع ألفاظ حاج الماحي الفصيحة الّتي استشهد بها الدّكتور عون لخرج ببحث فائق ومفيد.

وسأتتبّع في هذا الفصل مكوّنات لغة حاج الماحي من فصيح صحيح وآخر دخل عليه التّحريف أو القلب أو الإبدال أو غيره من عوارض اللّغة والتّصريف.

وأقف عند اللّغات المحليّة كالنوبيّة والبجاويّة والفوراويّة والأجنبيّة كالتُّركيّة والأوربيّة؛ ممثّلاً لكلّ ذلك تمثيلاً لاستفاضته، حذر التّطويل.

الفصيح:

ولن اقف عند الفصيح الدّارج فمعظم الدّيوان من هذا الضّرب. نحتاج، فقط، إجراء الإعراب عليه فيستقيم على نهج العربيّة كعامّة كلام أهل السّودان نظماً ونثراً. ولكن هنالك فصيحٌ تحتاج فيه إلى مراجعة المعجم نحو (السحوق والمرجب والأنبوب وطاح والحَبَر وهيد وشويم وكَاسَ والهَجَا والرَّيِّس وكَدْوِر) أما السِّت الكلمات الأوليّات فمن الفصيح الصّريح، جاءت (السحوق) في قوله (ص٥٣٢):

اليبيس خضرلو الوُروق عَطَفْلُو النّخل السَّحُوق

فالنّخل السّحُوق هو الطّوال.

وجاءت (البراطيل) في قوله (ص٥٩٩):

في شرعو ما بيميل ما بياخد البِرْطِيل

والبرطيل هو الرّشوة، وفي القاموس: برطله فتبرطل: أي رشاه فارتشى.

وجاء فعل (المرجَّب) في قوله (ص٢١٨):

بُشْرَى لنا يا مسلمين بي ها النّبي جاهو العريض اللّى قَلْبْنا يَرَجِّبِ

وأصل التّرجيب التّعظيم والمساندة، وشجرة رجّبية إذا دعمت بأعواد حتّى تعينها، وترجيب القلب دعمه وتطمينه ومساندته. قال أيضاً (ص٥٠٣):

قلبك الرءّاف يا محمدا تَرْجُبَ اليخاف يا محمّدا

قال سويد بن الصَّامت:

وليست بسنهاءَ ولا رجّبيّةٍ ولكن عرايا في السّنين

وجاء لفظ الأنبوب في قوله (ص١٣٥):

يطيع لي أجله الأنبوب سَجَدْ خَرْلُو الْمُنير مَشْطوب

والأنبوب هو القلم والقصب وكعب الرّمح.

وتستخدم كلمة (طاح) بمعنى واحد عندنا في قولهم "الشّمس طاحت" إذا مالت إلى الغروب، وطاح عموماً تعني وقع وهي عاميّة قديمة وفصيحة صريحة، قال حاج الماحي (ص٢٧٣):

بي أهلي وجناي يا كابي طَايح نِحْنَ المذنبين وإنت الْمُسَامِح

وأمّا (الحَبَر) فالملابس الفخمة الموشاة، جاءت في قوله (ص٢٢):

كم من ملوك لابسين حَبَر راكبين خيول ليهن غُرر

أمّا الكلمات السّت المتبقيات فلا يَشُكُّ المتعجّل أنّها من العاميّة غير أنّها من الفصيح النّادر، أعني كلمة "هيد" الّتي جاءت في قوله (ص١٣٣):

نقيف في تاجو هيد وهبوب

والهيد – بالإمالة -الهواء البارد والريح اللينة الضعيفة.

وكلمة (شويم) وهي كثيرة في أشعار التّراث و(الشيوم) تعني السّير إلى المحبوب، ورحلة الفرح، وقال صاحب اللّسان إنها من اللّسان الحبشي القديم ووردت في قصّة النّجاشي والمهاجرين الأوائل إلى الحبشة حين قال لهم: (إذهبوا فأنتم شيوم في أرضي) أي آمنون.

ونقول (فلان يكوس لفلان) أي يبحث عنه، وردت في قول حاج الماحي (ص١٢٢):

عزيز السّلطنة الما قام يَكُوس

والكواسة والحوامة والدّواحة كلّها بمعنى واحد عندنا، وأصل الكواسة من قول العرب (كاست الدّابة) إذا وقفت على ثلاث قوائم ودارت حولها، وهو المعنى المراد لأنّ الّذي يكوس يبحث في كلّ اتّجاه.

وأمّا (الهَجَا) فهي من فصيح العاميّة الّذي لم تعرفه حتّى بعض المعاجم، وذكره ابن منظور بأخرة وقال هو الشِّبَع. قال حاج الماحي (ص٢١٨):

حلو اللّسان يَهَجَاكْ كلامو ويَطرِبِ

وقال:

من طَعَمُو اللذيذ يَهَجَاني

وقال:

ونَكْرُفْ لي رِياحو وعَنْبَرو اليَهَجَاك

وتقول جَدّاتنا قديماً: "تعال يا عَشَاي ويا هَجَاي" .. فهي هي.

أنشد ثعلب اللّغوي:

سقانا فلم نَهْجَا من الجوع نُقْرَةً سماراً كإبط الذئب سودٌ حواجِرُه

بقيت كلمة جارية على الألسن وهي كلمة "الرّيِّس" الّتي يحسبها الكثيرون من العاميّة وليس كذلك. وردت في قول حاج الماحي (ص١٩١):

ريّس الأمّة في القيامة مولّى للحجة والكلاما

وقال الشاعر الأموي في الريِّس بمعنى الرئيس:

تجد الأمان على حياض محمّد ثولاء مخرفة وذئب أطلس

لا ذي تخاف ولهذا جرأة تُهْدَى الرّعية ما استقام الرّيِّس

وآخر هذه الالفاظ كلمة (كَدْوَرَ) فعلاً أو (كُدُور) جمعاً وعليها قول حاج الماحي (ص٣٨٨):

كَدْوِرْ الجمال حركن

وقوله (ص٣٩٢):

كَدْوِرْ الجمال يا عبد.

وقوله (ص٢٧٢):

شيَّل فوق كُدُور

وغيرها كثير لا يكاد يصدّق متابع للمديح أنّ هذه الألفاظ من الفصيح إلاّ إذا أطلعته على قول ابن منظور – صاحب لسان العرب في مادّة (كدر) قال: "انكدر يعدو أسرع بعض الإسراع وفي الصّحاح: أسرع وانقضَّ. وانكدر عليهم القوم: إذا جاؤوا أرسالاً حتّى ينصبّوا عليهم... وحمار كدُرّ... غليظ. فالمادّة كلها تدلّ على القوّة والشدّة والغلظة والسّرعة وهي من صفات الإبل، فَكْدَوَرَ النّوق: ساقها بقوة وسرعة والكدور الإبل القويّة وأخطأ الأستاذ الرّاحل عمر الحسين في شرحها.

الفصيح المحرّف:

أمّا الكلمات الفصيحة الّتي أصابها تصرّف العامّة بالتحريف والقلب والإبدال والحذف والتّخفيف ونحوه فهي مكوّن أساسي من مكوّنات العاميّة، منها في ديوان حاج الماحي ألفاظ كثيرة نحو: (فشح، متوق، البشيم، اب سناب، وهرم، الهيعة واتهيّع والملجع والروس وواضب، وسطح).

أمّا (فشح ومتوق) فمن المقلوب، والقلب المكاني في كلام العرب سنّة متّبعة منه جبذ وجذب والغضروف والغرضوف وغيرهما كثير. وأصل الكلمة الأولى (فحش) والثانية (مقوت).

جاءت الأولى في قوله (ص١٨):

صادق اللسان الما فشح بالحق يقول حتّى ان مزح

وفي قوله (ص٦٤٣):

فما بابيجيب إفشاح ينطق بالكلام الصّاح

أراد الإفحاش من أفحش في القول.

أمّا (متوق) المنقلبة عن (مقوت) فقد جاءت في قوله (ص٢١٠):

سو مدحو ليك متوق إن كان تصبر معتوق

ذهب شارح الدّيوان عليه الرّحمة إلى أنّها نوبيّة من المتيق "وهو تهذيب قصب الزّرع ونحوه ليستوي سوقه والمراد هنا الزّرع وتجديد المدح" قلت: ولوجود

الأصل العربي واطراد استخدامه يبقى الاجتهاد في أنّها نوبيّة نّقْلٌ، لأنّها ذكرت عند غيره مثل ود تميم الذي قال عن المديح وأنّه يريد أن يكون له كالطّعام:

يبقى لي متوق   إن قت يقيف ما يقيف

أي طعاماً دائماً.

وقد تنحرف الكلمة الفصيحة بالإبدال بأن تجعل الحروف المتقاربة والمتجانسة بعضها مكان بعض فالميم والباء من الحروف الشّفويّة يقع الإبدال فيهما كثيراً فتصير الباء ميماً او الميم باءً وهذا لا يكاد يحصى في كلام العرب نحو (الهذرمة والهذربة) و(ما اسمك وبا اسمك؟) و(بكّة ومكّة) وهكذا. والّذي من هذا الباب في الكلمات أعلاه كلمة (البشيم) وأراد (المشيم) وهو الوعاء الحافظ للجنين داخل الرّحم، جاءت في قول حاج الماحي (ص١٩١):

في البشيم صوّر الغلاما   نفخلو روح جبَّر العظاما

وقال حاج الماحي (ص٥٢٧):

من شرى العاتي اب سنابا   شقّق التّيه والعُقَابا

أراد (اب سنام) وهو البعير الضّخم ذو السّنام العالي فقلب الباء ميماً كما مضى في (المشيم) وهذا في كلام أهل البادية مطّرد، قال ود الفرّاش:

ترى الكرّاب محدّر فوق سنابا

أي سنامها.

وقال الآخر:

قميص من سم وسروال من جهنّب

أراد جهنّم.

وقد يعكسون فيقلِبون الميم باءً كما قالت العرب (الهذربة والهذرمة) ومن ذلك قول حاج الماحي (ص٩٤):

أصبح بنا كسِرى انهدم   النهرِ غاض وابليس هرم

أي هرب، أبدل الميم باءً.

وقد يبدلون الهمزة عيناً أو العين همزة لأنّهما حرفان حلقيان، قال حاج الماحي (ص٩٠):

اتهيّع لبس قفطاني   وسط السّوق فرش دُكّاني

أراد (اتهيأت) فقلب الهمزة عيناً كما تقول العرب (العُثْكُول والأثْكول) وهو جزء من شجر النّخيل، وقال شاعرهم:

أعن ترسمت من أسماء منزلة   ماء الصّبابة من عينيك مَسجُوم

قال (أعن) وأراد (أأن).

وقالت امرأة من العرب (تحسب عَنِّى نائمة) أرادت(تحسب أنّي) ومثله كثير. لذلك قال حاج الماحي (ص٤٦٢):

خطب بي هيعة يا صاحب البشاشة تقول لي قريش رأيت الله ماشا

فقال هيعة وأراد (هيئة). وقلب حاج الماحي أيضاً الهمزة عيناً في موضع ثالث فقال (ص٤٢٠):

قال ذاك نبيكم ما غيرو ملجع الكبرى هيلو والريسة هسّع

فـ(الملجع) أراد بها الملجأ، وقد مرّت بك (الرّيسة) وهي الرّئاسة أمّا كلمة (هسّع) فهي ممّا طالها الحذف والتّركيب وأصلها (ها السّاعة) و(هذه السّاعة) فحذف منها ما حذف بالعجلة في الكلام وكثرة الدّوران فأصبحت (هسّع).

ومما وقع فيه الإبدال بسبب تقارب الحروف قول حاج الماحي يعظ نفسه (ص٥٢٢):

واضبي الصّلا بالسِّواكِ تلقي يوم الضّيق مُناكِ

فقوله (واضبي) أراد (واظبي) فأبدل الظّاء ضاداً، وذلك كثير في كلام أهل السّودان يفرون من إخراج اللسان فيجعلون الظّاء ضاداً كما ههنا، ويجعلون الذّال ضاداً كما في (ذكر وضكر) ويجعلون الثاء سيناً كما في (تمر وسمر) وهكذا.

ومن الحروف المتقاربة الحاء والعين فهما حلقيان يقع فيهما الإبدال قال حاج الماحي (ص١٨):

نوراً قديم في الكون سطح صلّى الإله ليه ومدح

أراد (سطع) بالعين فجعلها بالحاء لغة ومراعاة للقافية وقد يعكس فيضع العين مكان الحاء لمكان الأختية كما أخبرتك نحو قوله (ص٢٠٢):

أصحابو جُملة نجوم ترشع دُروعا دموم

أراد (ترشح) فوضع العين مكان الحاء فقال (ترشع). وهذا لا يكاد يطوله حصر.

وكثيراً ما يحذف أهل السّودان الهمزة تخفيفاً؛ فمهم حجازيّون ليسوا أهل نبر فيقولون (كاس وراس وبير) قال حاج الماحي (ص٦٦٨):

سِتَّتُو اللّي الروس دواويس قاموا دينن ماهو تحنيس

وقال (ص١٢٢):

نظيفاً صافي من عله ودنوس مركَّنْ في قريش هاشميه رُوُسْ

وقال عن الكفار (ص١٨٣):

فُحُولُن الرُّوس بقت خَصَايا

وهو في كل هذا يريد (الرؤوس) جمع (رأس) وهم السّـــادة والزّعماء، فخفّف الهمزة وحذف حاملها، وهي سُنَّةٌ لغوية ماضية في كلام اهل السّودان تبعاً للغة العرب الأصيلة والنماذج كثيرة نضرب صفحاً عنها حذر الإطالة.

فائدتان:

الأولى: هنالك ألفاظ لم اجدها في المعاجم الَّتي بين يديّ مع اســتواء جهة تصريفها مثل كلمة (العكوف) بمعنى (إبليس) كما يظهر في شعر المديح القديم، وهو اللعين والرّجيم والشّيطان، وربّما كنّوه فقالوا (أب طورة) و(أبو مِرّة) إلى نحو عشرة أسماء عندهم، ومنها العكوف ربّما لأنّه عاكف على الضّلال والإضلال منقطع لذلك كالمعتكف، أو لأنّه يعكف النّاس ويحبســهم ويصــدهم عن فعل الخير فهو من (فعول بمعنى فاعل)، وهو معنى أصيل مقبول جاء في قوله (ص٣٩٨):

بالزين لي زيّاً يكوي العكُوفُ

أي له حال وزيّ مليح يكيد الشيطان ويغيظه.

وفي قوله (ص٢١٣):

باحوالنا إنت ترى وتشــوف   ســلّمنــا من كيـد العكوف

وربّما ســمّوا العقرب بالعكوف لأنّ ذنبها معكوف أو معقوف والكاف والقاف أخوان غير أني لم أجد معنى الشــيطان في مصــادري. وهو على كل حال لفظ يحمل دلالة واضحة على سلامة الفطرة والذائقة اللغوية لشاعرنا. وحتّى نجد له أصلاً فإنّه يبقى من كلمات العاميّة السّــودانيّة الَّتي لم تعرفها المعاجم مثل (الزين والزعل) ونحوها.

امّا الفائدة الثانية فاســتخدام حاج الماحي للّفظين (غايث وقايت)، فالأوّل الذي بالغين (غايث) من الغيث والإغاثة، والّذي بالقاف (قايت) من الغوت والطّعام. ولا يحســب متســرّع أن الأمر من خلط السّــودانيين المعهود بين القاف والغين وبين الثاء والتاء، وإنّما هو اســتخدام واعٍ ومقصــود أراده الشــاعر وعناه بدليل انه اســتخدمهما مفردين ثمّ جمعهما في سياق واحد فقال (ص٥٢٦):

ببـدا بـالـغـايـث الـدوابـا   ربـنــا الـمـالـك الـرِّقـابـا

وقال أيضاً (ص٥٧):

خـالق البحـار مجري الفلـك   غايث الدواب غايث السـمك

ثم قال في أختها (ص٤٤٧):

يـا قـايت الحوت في الميـاه

ثم جمعهما في قوله (٢٢٧):

قاسم لها الأرزاق مغيثا مَقَوِّتا

فدلّ على أنّه واعٍ لاستخداماته اللّغويّة محيط بمعانيها، رحمه الله.

العاميّة:

أمّا الألفاظ الّتي نسميها عامية سودانيّة فلجهلنا بأصلها وربّما توصلنا في يوم ما إلى أصلها لأنّه ليست في كلام أهل السّودان كما أخبرتك إلا المكونات الّتي تقدمت. فكلمات مثل (الأقروب والدرفون والعوق والواقوق والكجور والتنقير وكاذر) وما كان على منوالها فعرف معناها زنسميها سودانية على لغة من ينتظر أن يظهر لها معنى أو اشتقاق يردها إمّا إلى العربيّة أو إلى المكونات الأخرى. فلا يبعد عندي ان تكون كلمة الواقوق مثلاً، بمعنى الحَرّ من الواجوج وهو اشتعال النار وأجيجها وتقلب القاف جيماً والجيم قافاً في غير ما حرف. وتبقى كلمات مثل الدرفون وهو الطفل، وعليه قولهم (أم الدرفون ولو مدفون) قال حاج الماحي في أكثر من موضع (ص٥٩٨، ٦٧٣، ٦٤٣):

من درفون مع السُّرّاح ظاهرات معجزاتو وُضَاح

ومثلها الاقروب وهو الّذي يتبع الراكب، قال حاج الماحي في صفة تواضعه (ﷺ) (ص١٣٤):

يَخَصِفْ نَعْلُو يَرْفَا الثّوب يَرْدِف خَلْفُو يسْعَى أقرُوب

وقال أيضاً (ص٥٨٣):

نعم الدَّجَّ أقروبو البُدوان يَكَاروبو

أراد نعم الّذي سار على قدميه. هذا، وقوله (دَجَّ) من الفصيح فالعرب تقول: "جاء الحاج والدَّاج". فالحاجّ الحجَّاج والدّاجُّ الذين يتبعونهم سعياً على الأقدام.

ويكثر عنده استخدام (العوق) وهو الجيش، وقال في (السّلام مطبوق) (ص٦٢٧):

دفَروا بالفَرَح فرسان تَنَادْلَ العوق

ويستخدمها مجموعة كما في قوله (ص٣٦):

عقب السّتة نعم الكُمَّلُ الشِّجعان طلحة مع الزبير الفرّروا العيقان

فالعيقان جمع (عوق) وفرروهم أي جعلوهم يفرون من المعركة.

ومما لم أجد له مقاربة عربية لفظة (التنقير) في قوله (ص٣٥٠):

إن مرّ بالتنقير تالفو الوحوش والطير

جعله شارح الدّيوان عليه الرّحمة من النّوبيّة وقال هي: الطّريق الضّيق وسط الزّرع. ومنها اشتقاق مشهور عندنا ربّما أعطى معنى السّعة المطلق يقولون (رماه في التَّنْقَرَارا) وربّما أعطى معنى الشّارع مطلقاً في الحالتين.

ومن الأفعال الّتي وردت عنده ولم أجد لها وجهاً الفعل (كاذر) قال (ص٦٨):

الشوم على من كاذرك

قال الشّـــارح: هي بمعنى عاداك، والوجه كذلك، ولكنّي لم أجدها في مظانّي العربيّة ولا العاميّة. وإن وجدت (كازاك) بمعنى عاكسك وعاداك.

أمّا الكجور فالشّائع أنّه السّاحر والزّعيم الرّوحي في جنوب السّودان وجبال النّوبة ولا أعرف لها أصـــلاً في العاميّة ولكنّي أحسّ بالمعنى العربيّ في تركيبها من المكاجرة وهي المعاندة، والمعاكسة وهي صنعة الكجور للعدو.

فائدة:

هنا ملمح لابد من إعارته بعض النّظر، وهو أنّ شعر الدّوبيت القديم ورصيفه شـــعر المديح النّبوي القديم يحملان ألفاظاً تُعَدُّ من روابط العاميّات العربيّة المتفرّقة؛ فهناك طائفة من الألفاظ يسمعها السّوداني المعاصر فيظنّ أنّها خليجيّة وافدة حتّى إذا عاد إلى الأصـــول في مثل شـــعر حاج الماحي وجد اللّفظة بلحمها وشـــحمها وهي ســـودانيّة المنشـــأ والاســـتخدام وإن اتّفقت مع غيرها من عاميّات العرب وليس هذا بمســـتغرب، ومن ذلك (انْسَـدَحَ، ونَشَـد، وعِزال، وواجِد، ودِيرة)، هذه الكلمات على أيّامنا هذه ظاهرها خليجي إذ لا تســـتخدم إلاّ عند الخليجيين ولكنّها في حقيقة الأمر عربيّة سودانيّة موجودة باستفاضة في شعر حاج الماحي وأضرابه. فكلمة (انْسَدَح) بمعنى تمدّد واسترخى واستراح هي بالمعنى نفسه في الخليج وفي شعر حاج الماحي كقوله (ص٢٠):

يا النّاسـي فَرْضَـك وانْسَـدَحْ الموت وَرَاكْ إنْ طِرْ سَـبَحْ

يعني أيُّها الرّاقد المتمدّد المسـترخي النَّاسـي لفرائضـك؛ اعلم أنّ الموت آتيك حتّى لو طرت، وســـبحت. والكلمة قديمة في تراثنا وقالوا إنّ (ود اب زهانه) نقيض الشّيخ فرح ود تكتوك ومعاصره كان اسمه المنسدِح حمد المنسدِح.

أمّا الكلمة الثّانية الّتي نتمثّل بها فهي الفعل (نشـــد) بمعنى ســـأل وهي عربيّة. تقول عجائزنا: (سألتك ولا نشدتك). ونشد في لغة الخليج بمعنى نادى وسأل فيقولون: (أنشـد فلان) أي أسـأله أو ناده. وردت عند حاج الماحي ورصـفائه كثيراً، منها قوله (ص٣٨٩):

يـومَـتْ الـجـحـيـم تِـتْـرَعِـدْ فـي حِـمَـاكَ مـا نِـتْـنَشِـــدْ

أي لا نسأل ولا نحاسب.

ومنها قوله (ص٧١٢):

يوم يَحَضِرْ نِكير لي نَشْدَتي

أي لسؤالي في القبر.

والكلمة الثّالثة الّتي اسـتشـــهدنا بها هي (العزال) يقول الخليجيون: "فلان أخذ عزاله وراح" أي أخذ متاعه، وهي الّتي وردت في قول حاج الماحي (ص٤٨١):

بـعـد فِـرْشَـــاتَـا وعِـزَالا تَـهَـتْـهُمْ ولبسُـوا الشَّـــمـالا

أي بعد المتاع النّفيس أنهتهم فصار متاعهم خشناً بائساً.

وقولهم (واجد) بمعنى كثير عربيّة خليجية شـــائعة في يومنا هذا، وهي عند حاج الماحي بالمعنى نفسه، وردت في قوله (ص٣٠٣):

مـالـك الملوك ســـامع النِّـدَا رازق العبـاد فَضْـــلُو واجِـدَا

والمتتبّع لا يعدم أخواتٍ لما أوردنا ههنا وإنّما مرادنا التّمثيل.

ألفاظ كردفانيّة:

الألفاظ الكردفانيّة من صـــميم العربيّة، وبادية كردفان من مظان العربيّة الفصيحة وإنّما نسبنا إليهم هذه الكلمات لأنّهم اختصّوا باستخدامها دون غيرهم ومنهم انتشـــرت عند غيرهم، وأشـــهرها كلمة (كيف) أداةً للتّشـــبيه بمعنى مثل، وإطلاقهم (الغَلَّة) على الطّعام عامّة، وقولهم (شِـــقّيش) بمعنى: أي اتّجاه. وفتح أوّل المضـــارع دائماً نحو (بَجْرَح، بَضْرَع) وهو عند غيرهم مكسور الأوّل (بِجْرَح، وبِضْرَع).

امّا (كيف) الّتي للتشبيه فشائعة عند حاج الماحي وغيره خصوصاً من أدركوا المهديّة وعايشـــوا وفود أهل كردفان على أم درمان وغيرها، يقول حاج الماحي (ص٢٢):

في الجلسـة تلقاهو إنْ حَضَـر بـين الـكـرام كـيـف الـقـمـر

أي مثل القمر... وقال (ص٧٢٠):

أنفُو كيف القَضيب في سَنّه

أي مثل السّيف في حدته... وقوله (ص١٠٧):

حباب الأتْقِيا أسـيادي العدول تجيك كيف البروج فوق الخيول

أي كالبروج فوق خيولهم لضخامتهم. وهي كثيرة عنده وعند غيره.

وأراها من بقيّة استخدام أندلسي قديم، قال لسان الدين بن الخطيب:

ورويى النّعمان عن ماء السما كيف يروي مـالـك عن أنس

أي: كما يروي مالك عن أنس.

ووردت (الغلّه) بمعنى الطعام أو المحصول في قوله (ص٣٠):

وأم روح جميع حتّى البسـس والـغـلّـه والُـفـول والـعَـدَس

وههنا كلمة تعيدنا إلى ألفاظ الخليج وهي (البســـس) واحدتها (بسّـــة) أراد بها القطط و(البِسَسَ) اسم خليجي، ويشهد استخدام حاج الماحي له على أنه سوداني قديم ايضاً قبل أن نتعامل مع الخليج باتّساع.

أمّا كلمة (شـقيش) المركّبة من (شـق) بمعنى جهة أو اتّجاه، و(ايش) وهي أداة الاســـتفهام فمجموع معناها أي اتّجاه، كما قال شـــاعر كردفان: (شـــقيش قولي يا مروّح)... استخدمها حاج الماحي في قوله (ص٥٣٥):

يوم تموت شـــقيش هروبـا يـا كـريـم اســـتـر عـيـوبـا

وفي قوله (ص٦١٨):

يُوْمَـتْ مَـدَّدوني وتَمّ يومي الميعـاد حَصَـــل شِـــق إيش

ويبقى فتح اوّل الفعل المضـــارع وهو لغة مُطَّرِدة في كُرْدفان يفتحون اول كل فعل مضـارع فيقولون هو (بَشْـرَب، بَسَـافِر، بَرْضَـع) وهو الفعل المكسـور الأول عند غيرهم ممن يقول هو (بِشْـرَب، بِسَـافِر، بِرْضَـع) وعليه قول حاج الماحي عن بنت حبيب (ص٦٣٢):

جـات بـالـعِقُود مُتْوَشِّـحَـا وجَـابـتْ كـلامـاً بَـجْـرَحَـا

وقال في العينية الشهيرة (ص٤٢٠):

أســـد الـلـه الـبَضْـــرَع يـنـهـر فـي الـمـجـمـع

والفعلان (بَجْرَح وبَضْرع) حقّهما كسر الأوّل في لغة أهل الشمال والوسط.

النّوبيّة:

الألفاظ النّوبيّة مكوّن أسـاسـي من مكوّنات العاميّة السّـودانيّة، وقد رفدت اللّغة النّوبيّة، وهي إحدى اللُّغات السّودانيّة القديمة في شمال السّودان– رفدت العاميّة بعدد ضـخم من الألفاظ خصـوصـاً في حقل الزراعة وسـرت هذه الألفاظ في اللّغة الدّارجة حتّى لم تعد تلفت النّظر إلا عند الدّارس والباحث في اللُّغات. وقد حفل ديوان حـاج الماحي بعدد ضـخم من هذه الألفاظ لقربه من بيئتها الأصلية، ولشيوع هذه الألفاظ في المنطقة وفي معجم الزراعة وهو مزارع أصـــيل، ولأنه عاش على الســـاقية، وألفاظ السـاقية كلها أو جلها نوبية ومن أمثلة ألفاظ النوبية في ديوانه: (أسـق، مكروق كارق، تسـاب، مسور، أركج، بديقه، الدير، الكير، السبلوقه، التَّدَّان، كَمَق، أركاق، اشكرتي، أروتي، البكق، والموران، الكادان، التوريق والقاريق) وغيرها.

أمّا (الأســق) وهو الولد أو الحفيد فقد وقع في أكثر من قصــيدة منها قوله في (صَلْ يا ربي خالقنا) (ص٢٩٠):

يـتـبـارك بـهـا رِزِقْـنـا لا أَسِّـــقْ اسَـــاسِـــقْـنَـا

أي إلى أولاد أولادنا.

وقال أيضاً (ص٦٣٦):

أسِّــق ود حِميلي مكـانـا ودّهـا هـا يَصــح جُرْنَـانـا

أراد حفيد الشّيخ علي ود حليب.

وفيما عدا كلمة (أسِّق) فإنّ الألفاظ الَّتي تقارب العشـرين المتبقية هي من ألفاظ السـاقية وبنظرة في قبَّتَيْهِ (الطَّلَقْ نسّـاما) و(المعظّم شانا) تطالعك معظم الألفاظ النوبية الَّتي قدمنا ذكرها.

فائدة:

إذا جزمنا أنه لا تخلو قصيدة من قصائد الساقية لحاج الماحي من ألفاظ نوبية فإنني بعد التحقيق أجزم بأنّ كلّ قصيدة لحاج الماحي جاءت على قافية القاف، لا تخلو من كلمة أو كلمات نوبيّة وذلك في نحو إحدى عشرة قصيدة، وقد ينطبق هذا على قصائده الَّتي على قافية الجيم على قلّتها، ومن شاء فليراجع ذلك.

وقد أضربت عن إيراد الشّواهد هنا لأنّ شارح الديوان بذل جهداً مقدراً في شرح هذه الكلمات، أغنى عن تطويل الكلام بإعادة التّمثيل لها، ولكني أقف مع كلمتين جعلهما هو وغيره من النوبية ولا أراهما كذلك إلاَّ من باب اتّفاق اللغات وهو أن تقع الكلمة بلفظها في لغتين فصاعداً وهذا امر غير ممنوع يُسَوِّغُه كثرة الشّواهد على ذلك.

أمّا الكلمة الأولى فهي (متوق) الَّتي ذهب الشّارح إلى أنّها من (متّيق) وهو تهذيب الأغصان وقد وقفت عندها في حديثي عن الفصيح في شعر حاج الماحي أعني قوله (ص٢١٠):

سو مدحو ليك متوق إن كان تسير معتوق

وقلت هناك إنّ (المتوق) هو مقلوب مكاناً وأصله (المقوت) وهو الزّاد ومثلت لها عند شاعرنا وغيره. وعلى الرغم من أنّ جعل المديح زاداً وطعاماً هو مذهب عند المادحين مثل ود تميم وقدورة وحاج الماحي وغيره. فقد بدا لي في الكلمة أصل عربي آخر وهو أن (المتيق) بمعنى التقطيع والتهذيب وهو المعنى الذي أراده الشّارح هو أيضاً معنى معروف في هذه المادة، فالعرب تقول (مَتكَ) إذا قطع، وأهل السّودان يجعلون القاف كافاً وبالعكس فيكون (المتق) هو القطع والتهذيب الذي أراده الشّارح على بعده.

أما الكلمة المتفق على نوبيتها الَّتي أكدها صاحب القاموس فهي كلمة (أَلَس) وهو الحبل الغليظ، ولا أنكر أن تكون نوبية الأصل ولكن تقوم شواهدي المستفيضة على أنّها عربية أصابها شيء من التحريف، قال حاج الماحي (ص٢٩):

تُوب واغْتَسِلْ يا الفيك نَجَسْ في غَفْلَة يَنْصَبّ الأَلَسْ

وانصباب الألس مروّع جداً، لأنّ الانصباب هو انفلات الحبل الغليظ يحمل حملاً ثقيلاً فينفرط. أشار أستاذنا دكتور عون إلى (الألس) في طبعة معجمه الأولى بالحرفين (س ن) ويعني أنّها سودانية نوبيّة. وكنت قد زودته عليه رحمة الله بملاحظات حول عدد من الألفاظ من بينها (القلس) وأوضحت ما رأيت من أصله العربي فوجدته في طبعته الأخيرة (٢٠٠٢م) وقد أهداني نسخة موقّعة منها جزاه الله خيراً وجدته قد أضاف المعنى العربي إلى هذه الطّبعة وقال (ولعلّ كلمتنا من نفس المصدر العربي القديم وانتقلت إلى النّوبيّة).

هذا وقد دار جدل بيني وبين بعض الإخوة النّوبيين على صفحات الجرائد وضمّنته بعض كتبي (عفو الخاطر ص٢٣٤-٢٤٨) بالإضافة إلى ما زوّدت به أستاذ الأجيال الرّاحل الدكتور عون الشّريف قاسم، ملخّصه أنّ أصل الكلمة هو (القَلْسُ)

وهو الحبل الغليظ من حبال السّفينة، قال صاحب القاموس المحيط: القلس حبل ضخم من ليف أو خوص، وقال ابن منظور في لسان العرب: القلس حبل ضخم من ليف أو خوص من حبال السّفن. وقال ابن جنّي في المحتسب في تفسير قوله تعالى (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) قال: قرأ ابن عبّاس (الجُمَّل) بضم الجيم وتشديد الميم وقال هو الحبل الغليظ من حبال السّفينة، وقال أبو حيّان في البحر المحيط: الجُمَّل فُسِّر بالقَلْس الغليظ. وقال صاحب التّصحيف والتّحريف: هو قلس من قلوس السّفينة، وقال الثّعالبي عن بعض الوزراء وأنّه نصب بين البيازين وضرب بالقلوس وهي الحبال الغليظة، وغير ذلك من الشّواهد العربيّة.

قلت: ثمّ دخل هذا الحرف إلى المصريين فحوَّلوا القاف همزة كجاري عادتهم في كثير من مثل هذه الحروف (قلم= ألم، قانون= آنون) وغيرها. وهي عادّة لغويّة عندهم نجدها مثلاً في كلمات أخريات كـ(الحقنة الشّرجيّة) الّتي تحوّلت عندهم إلى (شرقية) وهي في واقع الحال غربية. قال محقّق كتاب تشحيذ الأذهان عن القلس: ولعلّه هو الّذي يسمّى في بعض ريف مصر بالألس وأنشد عدداً من الأبيات من بينها:

وضرب ألفٍ بألف قَلْسِ أهون مِنْ وَقْفَةٍ لِحُرِّ يرجو نوالاً ببابِ نَحْسِ

والبحث مستقصى في الكتاب المذكور فليراجعه من شاء.

ملخص القول عندي أنّ الكلمة عربيّة الأصل. ولكن لا يشغلنا هذا عن غرضنا وهو إكثار حاج الماحي من الفاظ النّوبيّة في ديوانه كما سقنا الشّواهد عليه.

وهذا المبحث على اقتضابه يؤكّد أنّ حاج الماحي إذا تكلّم عن السّاقية أو ركب قافية القاف وجّدَتْ ألفاظ اللُّغة النّوبية إلى قاموسه طريقاً متلئباً ومدخلاً مهيعاً.

البجاويّة:

ومن اللّغات السّودانيّة المكوّنة لعاميّة أهل السّودان اللغة البجاويّة أو التّبداويّة وهي لغة أهلنا في شرق السّودان. وقد وقعت منها ألفاظ عديدة في ديوان المديح النّبوي عموماً وفي ديوان حاج الماحي على وجه الخصوص، وربّما كان ذلك نتيجة الجوار أو نتيجة أسفار الحج الّتي تمرّ بديار البجة وكان أشهر طرقها هو طريق الباك الذي يعبر أرض البجة في شرق السّودان، ثمّ ميناء سواكن الّذي هو ملتقى الحجيج من كلّ فجاج السّودان. وربّما كانت طرافة روح حاج الماحي ومحاولته خلق مسحة من الحميمية في أشعاره هي الّتي دفعته إلى استخدام بعض ألفاظ البجاة، ومن الكلمات البجاويّة الّتي أوردها حاج الماحي (شوب شوب، وبلوية كاك ولكيب) جاءت الأولى في قوله (ص١٣٥):

أصل واقري السّلام شوب شوب

وهي من تحيّات الهدندوة.

أمّا قوله (بلويه كاك) فقد وردت في قصيدته (يا الله هداك) وفيها (ص٦٢٤):

مقاشـــي وجِرا في ضَـــرَاك بِـديـري وبَـلَـويَّـهْ كــاك

فهو يدعو لأهل جِرى ومقاشـــي بأن يكونوا في حمى الرّســـول (ﷺ) ومعهم البديريّة و(البلويه كاك) أراد بهم البجة وهم الذين يقولون هذه العبارة وتعني (لا أعرف العربيّة). وهذا مما التقطه قطعاً من أسفاره ثمّ وظّفه بذكاء ههنا للإشارة لأحد الأجناس الّتي كثيراً ما يدعو لها كما فصلناه في غير هذا الموضع.

بقيت الكلمة الثّالثة وهي (اللكيب) وهي كثيرة في أشـــعار الدّوبيت وتعني الكجرة أو الضراء أو السِّتر، قال الحاردلّو:

كَم شلّع لكيب دوتي وخَرَبْ سِتّيرو

وقال ود الفرّاش وهو مغرم بالبجاويّة عارف بها:

أشوف الفي اللّكيب يَلْصِفْ زُمَاما

ومضـــى حاج الماحي أبعد من ذلك – كعادته – واشـتقّ من الكلمة اسـم فاعل فقال (ص٢٢٠):

مثل العريس الفي سبوعو مَلَكَّب

أي مسترخٍ مع محبوبته داخل هذا الخِدر أو الضَّرا أو السِّتر. بل مضى شوطاً أبعد فجمعها وكنَّى بها عن الجنّة في قوله (ص٤٦٣):

ينال مقصُودوفي الجنّة أم لكايب حِساناً ليهو في قصوراً عجايبْ

الألفاظ الحجازيّة:

تتنامى ألفاظ اللّغة بما يلتقطه المتحدّثون بها من لغات ولهجات أخرى فيصـــبح معجمها غنيّاً كما تفعل العاميّة السّـودانيّة. وقد كان لمادحي الجناب الفضـل في إدخال كثير من الألفاظ الحجازيّة إلى عاميّة أهل السّـودان شـاعت في اسـتخدامهم. ووردت في ديوان حاج الماحي طائفة من هذه الألفاظ منها (الدَّورق) وهو نوع من جرار أهل الحجاز يسـتخدمونها في السُّـقيا يحمل فيها الماء. تكرّرت في ديوان حاج الماحي كما في قوله (ص٢٨٨):

نَـكـرف نَـدّو يَشْـــرِقْـنَـا نَشْـــرَب فــي دَوَارِقْـنَــا

وهي جمع دورق.

وقال في (عيب شبابي الاتحبس) (ص٢٨):

في الرّوضـــة فوق الغُوف في الدّورق الصّـــافي اتْمَعَسْ

أي تَروى وامتلأ من الشّرب مِنْ ماء زمزم المعبّأ في هذه الدّوارق.

والكلمة فارسية الأصل، عُرِّبت وانتشرت في الحجاز ونقلها المادحون قبل أن نعرف الدورق، في معامل العلوم في المدارس والجامعات.

ومن الأفعال العربيّة الشـــائعة في بيئة الحجاز والخليج قولهم (ترى، نبغي) الأولى للتّنبيه كما تقول (ترى، انا قابلت فلانا). قال حاج الماحي (ص٢٣٠):

حســـارو في كبودنـا كَدَّنـا تَرَى، المســـار مُو بِيَـدَّنـا

وقوله (ص٢٩٨):

ترى المقصُود عسى ربّي إن حياني أزور الغالي واصحابو الحُسَانِ

فهي ليست للرؤية المحضة كما تلاحظ وإنّما هو أسلوب للتّنبيه.

وقد وردت لفظة(ترى) بهذا المعنى بكثرة في وثائق السّـــلطنة الزّرقاء وهي شائعة في شعر الدّوبيت:

ترى شفناها بت ود المغَزَّر كومو

ومن ألفاظ أهل الحجاز: (إيش تبغي) أي ماذا تريد، وقد وردت (تبغي) في ديوان حاج الماحي (ص٦٢٨):

ذاك باب البقيع إن رِدت تبغي مروق

وبمناسبة (ايش) فهي من ألفاظ الحجاز الّتي انتقلت إلينا من العربيّة القديمة.

تستخدم مفردة أو مركّبة مع ما، ومثال الأخيرة قول حاج الماحي (ص٤٩٨):

تلقى اشما تريد يا غاوي

يعنّي كلّ ما تُريد وما تهوى.

أو قوله في صفة نعيم الجنّة (ص٣٨):

إيش ما تشتهي الأنفس يجيك نيعان

وهي تعني عنده (كلّ ما) وانظر كيف تجرأ وجمع (نوع) على (نيعان) ولنا مع أمثالها وقفة.

الألفاظ المصريّة:

للتّراكيب والألفاظ المصريّة نصيب في ديوان حاج الماحي، بسبب الجوار أو الرحلة أو السّـــماع؛ منها (واصـــل، وعمّال وجرنان) والأخيرة أوروبيّة عرّبها المصـــريون تســـتخدم بمعنى الجريدة أو ما يقرأ، اســـتخدمها حاج الماحي في قوله (ص٦٣٦):

أَسِّـــقْ ود حِميلي مكـانـا ودّهـا هـا يَصِـــحْ جُرْنَـانَـا

أي يقرأ ما فيها ويقابله ويصحّحه.

أمّا كلمة (واصـــل) وهي كثيرة عند الشّـــايقيَة اســـتعاروها من المصـــريين في الصّـعيد خصـوصـاً، وهي بمعنى (خالص) كما نقول (بالمرّة) أو (أصـلاً) وأكثر منها حاج الماحي جداً، منها قوله (ص٧٢):

لـولا الـجنـــه مـا بْنَـدْنِيـلا واصـــل مـا خبرنـا ســـبيلا

وقوله (ص٦١٩):

يـا نعم الرّجـال ديلاك حبورا   زاهدي نعيما واصل ما بتدورا

أمّا كلمة (عَمَّال) فقد وردت في قوله (ص٥٦٢):

خيبة نفسي أنا المعكوسه   عَمَّال تجتهد في عرُوسَا

التّركيّة والفارسيّة:

ولا نعدم اثراً للغة التركية أو الأصـــول الفارســـية لبعض الألفاظ بحكم وجود الأتراك في السّـــودان على أيّام حـاج المـاحي أو عن طريق التـأثّر بـالمصـــريين أو الحجاج في الحجاز. ومن ذلك (السّيرك والجمارك والنيشـان والْبَلْطَجَة وأوَنْد وشَـبَنْد) ونحوها.

أمّا السّيرك فهو الدّفتر الّذي تسجّل فيه المكاتبات ويقال (سـركي) وهي تركيّة كما أفاد صاحب القاموس، جمعها حاج الماحي على (سراكي) في قوله (ص٥٢٣):

فـي الـوقَـاف يومَـتْ نِـداكِ   قُمْنـا شـــايلين السّـــراكي

وأراد بالسّراكي صحائف الأعمال يوم الوِقاف أو يوم القيامة.

واستخدم كلمة (الجمارك) في قوله (ص٥١٩):

دار أمـان دايـم طَـهـارِك   لا غُـوَار لا فـيـك جـمـارِك

يصف الجنّة والدّار الآخرة ويطعن على الأتراك.

وذكر (النيشـان) وهو الوسام، والكلمة فارسيّة جاءتنا عن طريق الأتراك فقال (ص٦٣٦):

شِـــيل أمْدَابـا يـا بـدرانـا   ألبس بُرْدَتَـا ونيشَـــانـا

ومتى ما وجدت المقطع (جي) مضـــافاً إلى كلمة قطعت بأنّه تركي كالعربجي والمكوجي، ومن ذلك البلطجي، والبلطجة هي الغش والاســتخفاف، قال حاج الماحي (ص٥٨٤):

ما قالوا سَوَّالبلطجو   ما فلَّ مسكين حَرَّجُوا

وهذا من طعنه المغلّف على الأتراك وسوء معاملتهم للنّاس.

أمّا الكلمات الفارسـية الصّــريحة فمن أمثلتها (أَوَنْد، وشَـبَنْد) اللّتان وردتا في (أسد الله البضرع)، أعني قوله (ص٤٢٥):

لي أصــحاب الدّين المكروب أوَنْدِ   يات من يجيك فارســاً شَــبَندِ

فـ(الأوند) الحبل، أراد حبلهم مكروب ومشدود، وشبند تعنّي الأصيل والنّبيل.

ولعلّ فيما اقتطفناه في هذا الفصـل ما يدلُّ على سـعة لغة حاج الماحي والتّنوّع الفريد الّذي انتظمها فأكسبها حيويّة فائقة أعانت على التّعبير عن خلجات نفس الشّاعر فأوصلت مفردات السّيرة إلى المتلقّي على خير ما يرام.

الصّوتيّات

يتبع للحديث عن اللُّغة الحديث عن الأصـــوات اللُّغويّة وهي كالفرع منه، لأنّ بعض الأصـــوات تقوم مقام الألفاظ أو تفيد معناها. ويكثر حاج الماحي بصـــورة ملحوظة من استخدام أصوات الأفعال... فحين يقول (ص١٦):

أعطوه تفاحات بلح حين ذَاقَا قال دَمَّاعو (تَحْ)

وهو أسلوب دارج في عاميّة أهل السّودان، يقال (علم بالخبر ودموعه قالت تَحْ) كناية عن انهمارها ومحاكاةً للفعل. ومنه أيضاً في القصيدة نفسها (ص٣):

السّـــمعو في جوفو انجرح من شـــوق حبيبو يســـوِّي أَحْ

فقوله (أح) هي حكاية صوت الألم. وهي تُؤدِّي معنى الفعل كما تؤدِّي أسماء الأفعال معاني الأفعال. وقد وقع في هذه الحائيَّة (عيب شـــبابي الما سَـــرَح) ثلاثة أصوات مَرَّ منها اثنان وثالثها هو قوله (ص١٩):

كم من عزيز فات وانشـــتح بارودو يبكي تَرَحْ تَرَحْ

فقولـه (ترح) هي حكـايـة صـــوت الضَّـــرب، وهو كثير في كلامنا وقد يكون الصّـوت أقوى في التّعبير أحياناً من الفعل نفسـه. يقول حاج الماحي في موضـع رابع (ص٢٧٨):

ذكـر الـمـقـامـات يـا أخَـيْ   من حينـو قـال دمّـاعو دَيْ

فكلمة (دَيْ) هي صـــوت يحـاكي فعل نزول الدّموع من العيون، مثلما قـالوا دمّاعو قالت (تح)، أو سالت (جَو)، أو نزلت (دَوْ) وأخواتها.

وتتكرّر عنده حكاية فعل الضَّـرب ومحاكاة صـوته وربّما كرّر الصّـوت نفسـه كمـا مرّ في (ترح ترح) وهو أشـــد وقعـاً وأقوى تعبيراً كمـا قـال عن الصّـــحـابـة (ص٣٢٥):

شـايلين صَقَل ضربهم تَلْ تَلْ   قلموا الرِّذل في البراز عَـدَل

ويعجبه هذا التّكرار لأنّه يصـوِّر الحركة وينقل صـوتها بدقة ويؤكّده مثلما قال في وصف الجمل في (سمح الوصوفو) (ص٤٠٧):

تسـمع مشـيهو رجليهو طَبْ طَبْ   ينســـف دوايرو بينـاتـا يَلْعَب

وأكثر ما يكرّر حاج الماحي الصّوت في أفعال الضّرب ليؤكّد على قوّتها، قال في (نعم القام منسرق) (ص٧٣٦):

الـكـرام فـرســـان الـزَّرِق   ضـــربهم تَـبْ تَـبْ موفلق

أراد بالزرق رمي الرّماح على العدو، وقوله (ضـربهم تب تب) أراد ضـربهم مُخَلَّص وقاطع لا يحتاج إلى مراجعة وليس ضرباً سطحيّاً.

وصوت الفعل في إحداث معنى الفعل ومحاكاته أشبه بالحركات الجسدية لدى المتحدِّث، فـإن إشـــارة المتحدِّث أحيانـاً تقوم مقـام الفعل وتعبّر عنـه، وهي في أقلّ وظـائفها تعين على فهمه، فالّذي لم يســمع صـــوت القيد وهو يســقط عن اليدين أو الرّجلين حينما يُفَكُّ، سـيسـاعده اسـتخدام شـاعرنـا لصـوت الفعل حتّى يتعرّف الفعل وصوته كما قال (ص٣٧٥):

مولاي حَلْحِلْ قيـدي شَـــتْ   من ســـاقي يتقطع حِتَـتْ

ويتبيّن لك من النّماذج السّابقة فائدة حكاية الصّوت في إيصال المعنى، وبراعة الشّاعر في استخدام ذلك تخدم معانيه وصياغته الشّعريّة.

الإدغام:

ومن أصوات الأفعال إلى صوتيّات الألفاظ وليست المسافة بينهما بائنة بينونة كبرى، إذ كلّها ممّا يعالج بها اللّغوي والشّاعر قضايا اللّفظ المفضية إلى خدمة المعنى.

ويقع الإدغام في عاميّة أهل السّودان كثيراً وخصوصاً في لغة البوادي ولغة المديح الشعبي فقول حاج الماحي (ص١٥٦):

جابولو البراق بي طوكًا وسيد الرُّسل يركب فوكًا

فالأصل في (طوكّا وفوكّا) هو (طوقها وفوقها) فبعض أهل البادية يُظهر القاف ولا يُحرّكها وإنّما يقول (فَوْقْها وطَوْقْها) فيجمع بين ساكنين وبعضهم يبدل القاف كافاً، وهي أختها، ويدغم فيها الهاء فيقول (فوكا وطوكا) ويحدث مثل ذلك في المتقاربين كـ(الدّال والتّاء)، قال حاج الماحي في عدد من الألفاظ في مطوّلته (يا مرحباب المصطفى بما أتى) (ص٢٢٧):

بسم الله بالخلق الخلائق أوجتّا

ما يتلا شي في الكون ذاتك وَحَّتَا

حاشى السُّوَّال من بابو ما كان يَطْرُتّا

يا البي حماك الرّسل نالت مَقْعَتَا

ما بيخشى شي كم من معاجز شاهَتَّا

سبعين أسير مغصوبه جابا مَقَيَّتا

وقوافي هذه الأشطار جميعها ممّا اجتمعت فيه الدّال والهاء (أوجدها، وحّدها، يطردها، مقعدها، شاهدها، مقيدها) ولكن الشّاعر على لغة أهله قلب الدّال تاءً ثمّ أدغم، فقال (أوجَتَّا مكان أوجدها) و(وحَّتّا وكان وحَدَها) و(يطرتّا مكان يطردها) و(مقعتا مكان مقعدها) و(شاهتا مكان شاهدها) و(مُقَيّتا مكان مقيدها) وهي لغة ذائعة مشهورة عند أهل البوادي ولها أصل في كلام العرب تجده في نحو قول الشّاعر:

كأنّها بعد كلال الزّاجر ومسحي مرّ عقاب كاسر

وتستطيع متابعة ذلك في قصيدته (كدور الجمال حرَّكن) وفي غيرها، فهو كثير عنده أعانه على توليد الألفاظ للوفاء بقوافيه ومقاطع أشعاره.

الإمالة:

ومن الصّوتيّات الإمالة، وهي أن تنحو بالألف ناحية الياء وقد يُنْحَى بالألف ناحية الواو أيضاً. وقد مرّ بنا في مبحث القرآن الكريم في شعر صاحبنا ونشير هنا فقط إلى أنّه استفاد منها ووظّفها توظيفاً حسناً حتّى في بعض قوافيه فاستخدم الكيفرين والنيس وقرير مكين والنّهير، وجعل الأخيرتين قافيتين فقال في (شوقك شوى الضمير) (ص٣٥١):

حيدر كلاب النير ملاهن جنازير

وفيها أيضاً:

يـــخـــجـــل ضــــــيـــاهـــن الشّـــــمـــس فـــي الـــنـــهـــيـــر

يريد الكرّار وأســـره وتقييده للأعداء والحور وجمالهنّ؛ فاســـتفاد من إمالة (النّـار) و(النّهـار) على قراءة الـدُّوري عن أبي عمرو والكســـائي فجعلهـا (النير) و(النهير) فاســتوت القافية، ووافقت مذهباً صــحيحاً مقبولاً في كلام العرب وقراءات القرآن.

التّقديم والتّأخير:

تحمل أوزان الشّـعر وأعاريضــه شــاعرنا على التّقديم والتّأخير حتّى يسـتوي وجه الكلام، والتّقديم والتّأخير من مزايا اللّغة العربيّة لم يتوافر لغيرها وهو مكفول في الفصــيح متى ما كان الإعراب مكفولاً. . لكن شــيخنا حاج الماحي له مع أســماء الإشــارة وضــع خاص، فربّما قدّم وأخّر ووضــع بعضــها مكان بعض وأنت في نهاية الأمر لا تملك إلاَّ أن تسيغ وتستحلي ما وقع له، فانظر إلى هذه التّراكيب:

١/ صونا واربطا لي حليقا والتموت بي هذا ضيقا (ص٤٥).

٢/ يفشى السّلامُ لي من أرامو في تلك أيّامو ما عاب طعامو (ص٢٧٠)

٣/ شوف الدّنيا وفعالا تغشّك بي هذا حالا (ص٤٨٠)

٤/ أصبا ذاك مقامك وأشاهدا (ص٣٠٨).

٥/ في ذيك دوارقو ياخدلو شربه (ص٣٩٩)؟

٦/ مناي في حرمك مقام واشاهد ذيلك كرامك (ص٥٥٢).

٧/ اليبيس الرّاقد حطيب ناوى تلك الحين شال وضيب (ص٦١٢).

٨/ إن مرق بالوادي اليبيس ليه تلك الحين يبقى ديس (ص٦٦٧).

٩/ تلك الحين لي الغلايا نزّل عيث السمايا (ص٦٧٤).

لاحظ معي اســتخدامه اســم الإشــارة مفرداً ومجموعاً ومذكّراً ومؤنّثاً (هذا) و(ذاك) و(ذيك) و(ذيلك) و(تلك) ولكنّه يقدّمه دائماً على المشــار إليه (بي هذا ضــيقا) ووجهها (بضــيقها هذا) وقوله (بي هذا حالا) هي (بحالها هذا). و(أصــبا ذاك مقامك) (أصـــبا مقامك ذاك) و(في تلك أيّامو) (في أيّامه تلك) و(في ذيك دوارقو) هي (في دوارقو ذيك) و(أشاهد ذيلك كرامك) (كرامك ذيلك) وهكذا...

فالوضــع الطّبيعي أن يأتي اسـم الإشــارة قبل المشــار إليه، لا كما ههنا ولكن الشّيخ ضايقه النّظم، وربّما ذهب الظّن إلى أنّ هذا اعتقاده في الاستخدام أو الصّواب لاســم الإشـــارة وأنّه لا غبار عليه. لكن الّذي تجدر ملاحظته أنَّ (تلك) عنده لها

استخدامان: الأوّل كسائر أسماء الإشارة الّتي مرّت بنا، كما في المثال (٢)، أمّا الاستخدام الثّاني في الأمثلة الثّلاثة من رقم (٧) إلى رقم (٩) فهي عنده بمعنى آخر هو أقرب إلى التّوكيد كأنّه يريد (تلك الحين) (في نفس اللّحظة) وفي نفس السّاعة، كقولهم: (ديك الحزّة نكر كلامي) وهذا شائع عندهم وربَّما كان هو المسموع عنده والّذي تعلّمه... لكنّني أستحليه على كلّ حال لأنّه عناه وضبطه وأحسن استخدامه كلّما احتاج إليه.

ومن ضروب التّقديم والتّأخير عنده، أيضاً قوله:

١/ صاح نادى المنادي فقد محمّد بان (ص٣٤).

٢/ قولّي يا سمح الوصوفُ عين جزاك النّاس تشوفو (ص٥٠).

٣/ إن كان ربّك ما رحم بي مدحو ليك ناقص فهم (٩٦).

٤/ قول لَبِيْبِي مَسَلِّمنو من ذنوبو طفيل كأنُّو (ص٤٨٩).

أمّا النَّموذج الأوّل فهو ضرورة إذ لو قدّم وأخَّر أي لفظ ممّا ترى لاختلّ نظام البيت. وأمّا النّموذج الثّاني فأراد: (جزاك تشوفو النّاس عياناً) ولو حاول له أيّ وضع غير ما نرى لما استقام له، وتقديم (عين) كأنّه أراد (يرونه رأي العين) فتقديم اللّفظ المنصوب على المفعوليّة هنا أمدح لأنّ فيه معنى الحصر والتّخصيص؛ مثل (إيّاك نعبُد).

وأمّا النّموذج الثّالث فقد يراه الكثيرون مقلوباً كأنّه أراد (بمدحك له) ولا أراه إلاَّ صواباً إذا فهمنا إلى من يتوجّه الجار والمجرور (ليك)؛ فتأمّل.

وما أحلى استخدامه الأخير، فإنّ وضع أداة التّشبيه في آخر الكلام من الأمور الصّعبة ولكنّي أراها تأتّت للشّيخ وساغت (كأنّه طفل صغير) وهي بهذه الصّورة – والله – أحلى وقعاً ممّا لوجاءت على ما كان ينبغي.

ولا تستطيع اتّهام الشّيخ بشيء من خلل الإيقاع عنده، فإنّه ينزل بعض التّراكيب والعبارات والجمل الدعائية الاعتراضية منازل لا يملك المطالع لها إلاّ أن يتعجّب منها؛ انظر كيف وضع دعاء الصّلاة والتّرضي ونحوه في صورة لا تقبل سواها، نحو قوله (ص٤٤٣):

قالت الشفه صلى الله عليه وسلم مختون صافي أحمد طاهراً من دم

فهذا بيت في نهاية التّرتيب وغاية الانتظام في شطريه.

وانظر قوله (ص٤٤٨):

دوب صحابتو متبّعنّو ناس علي اللّهم ارض عنّو

وقوله (ص٩٨):

سَيِّدي اللّهم بارك بيه ننجو من المدارك

وقوله (ص٥٢٠):

نَـاظمَـا المـاحي اللـه بـارك   لـي الرّســـول هيبــة وقــارك

وقوله (ص٤٢٢):

حين شَـدَّ قارحو هَزْ فوقو هاشــا   كبر بي ســـيفو الله ما شـــا

أو قوله (ص٥٣٧):

الرّســـــل جــات بي تمــامــا   عليـهم الصّـــلا والسَّـــلامــا

أو قوله (ص٢٢٠):

مـولايَ عزَّ وجَـلَّ صَـــــلِّ على النّبي

وقوله (ص٥١٥):

يـــوم الـــمـــحشَـــــرا   إن شـــا للـه نرد الكوثرا

ذَاتُـــــو الأكْــــبَــــرا   الحَقْ جَلَّ عَيَانْ نَنْظُرَا

فالّذي يتأتى له هذا الإيقاع المنسجم والتّضمين المنضبط لا يصعب عليه ما مرّ سابقاً ولكنّه حاول به وجوهاً رسخت في ذهنه ورآها هي الاستخدام الأمثل.

فائدة:

هؤلاء القوم قد يرسخ الشّيء في أذهانهم ممّا يتعلّق بالممدوح الكريم فيسيرون عليه تبرّكاً ولو كان خطأً عند غيرهم. ومثال ذلك قولهم (اســـم النّبي رُفعة) أي أنّهم يرون في قولك (محمّدٌ) مدح وحفاظ على الرّفعة أكثر ممّا لو قلت (محمّداً أو محمّدٍ) وربّما أصـــرّ عليك من لا يعلم كيف هو الوجه في الكلام العربي أن ترفع اســـم النّبي متى ما لقيك (يا ولد اسم النّبي رُفْعَة). وقد وجدت لهذا سنداً قديماً في كتابات الجاحظ ندَّ عنّي مكانه الآن قال فيه إنّ فلاناً تحدّث عن فلان فنصــب اســمه وكان حقه الرّفع فقيل لـه في ذلك فقال أدري، غير أنّي لا أريد أن أرفع من قدره، كـأن رفع الإعراب فيه رفع لقدر الإنســان...ولحسـن الحظ كان حاج الماحي عظيم التّقدير لهذا الأمر لهذا لم يتابع السّودانيين في فتح تاء المتكلِّم وهوشديد التّمسُّك بضم هذه التّاء كما في قوله: ثنيتُ وبديتُ وقوله:

شـــرعتُ مدحاً باســـم ربّي   إلــهـنــا الـمِـنّــهُ الـجـبـاره

فـالرّفع هنا صـــحيح وعلى وجهه ولكنّه قد يرجع إلى كلام صـــاحب الجاحظ فيرفع المســتحق وغير المســتحق كقوله (عبدالرّحيمُو – وبصـــاحبو) وهكذا على ما تمليه العاميّة.

الضّرورة:

يباح للشّاعر ما لا يباح للكاتب والنّاثر لصعوبة مدارج الشّعر، والضَّرورة في الشّـــعر عند أهل الاختصـــاص هي كالرّخصـــة في الفقه لا يقدم عليها إلاّ فقيه لأنّ محصول الإنسان إذا كان ضعيفاً وصار يركب الضّرورة متى سُدّت سبل الاتّساع في اللُّغة في وجهه فهذا عين الضّعف. ويسامح الشّاعر في أمور منها مثلاً فك التّضعيف وحذف الألف والواو والياء أو زيادتها وحذف بعض الكلمات لأنّ في السّـياق ما يدلّ عليها ونحو ذلك... وقد وقع من مثل هذا كثير في ديوان حاج الماحي، لكن حاج الماحي زاد على ذلك أحياناً وركب مركب الجراءة وأتى بأشـياء لا تقبلها اللُّغة ولا نواميسها وسنمر بشيء من ذلك أيضاً. أمّا الضّرائر المباحة فمنها فكّ التضعيف في قوله، (حجَّ) (ص١٠٧):

نعود لي الكعبة صافين من زُغول حَجَجْنَا وسرنا لي زيارة الرّسول

ومنه ايضاً قوله (ص١٩٤):

عدد حجيجاً بمكّة حاما كذا الحَجَجْ واعتمر وصاما

وتكرّر عنده كالشّيء الطّبيعي المألوف، فقد ذكرها ثالثة في قوله (ص٤٧٧):

حَجَجْ وطاف بالعتيق ولبَّى

ومن ضرائره زيادة الألف في بعض الأسماء كقوله عن الصّحابة (ص١١٦):

يهينوا المشركين أهل الضّلال يهدوا أصنامهم العبدو الهبال

أراد (هُبَل) اسم الصّنم فاضّطرته القافية لزيادة الألف وهو معهود في كلام العرب. (لبَّدهُ ضربُ الطّلال) أراد (الطّلل).

أمّا ركوب الحذف فهو أكثر من أن يُحصـى في ديوانه، وقد يكون مقصـوداً أحياناً أو تدفع إليه الضَّـرورة في أحيان أخرى، ومن ذلك قوله وقد حذف حرفاً (ص٥٧٦):

السـته نعم البايعوك أهل الحديبه النّصروك

وإنّما المراد (الحديبية) مكان الصُّلح المعروف ولكن ضايقه الشّعر فاحتاج فحذف الياء وهذا وارد حتّى في هذا الحرف على وجه الخصوص.

ومن الضّرائر الّتي لا وجه لها إلاّ محض الاضطرار قوله (ص٢٧٣):

نبياً معاجزو بلا انحصور

أراد بلا (انحصار) ثم ما انقادت له فوضع الواو مكان الألف، ولقائل أن يقول: هذا من باب إمالة الألف نحو الواو. ولعلّ شاعرنا لم يسمع بذلك وإن وقع في كلامهم.

أمّا حذف الكلمة فقد وقعت منه ضروب وأشكال طريفة منها قوله (ص٣٧١):

صـــليت ســـلامــاً بــاتّفــاق عــدد النّبــات عــالي ودقــاق

خلق اللـه من حُمْره وزراق للـجــاتو مـن فــاس والـعراق

مـا الّتي جـاءتـه من فـاس والعراق وتركهـا لفطنـة القـاريء وإلمـامـه بمعجم المديح؟ إنّهـا (المحامل والوفود والنّاس بـأجنـاســـهـا) فهذا اختصـــار بديع مثل قولـه (ص٣٣):

ما هبْ نسيم ما شـال برق في قِبْلَة مـا قـام نبات من المغيب لا طَلْعَتَا

طلعـة مـاذا؟ فـإنّـه لم يتقدّم ولم يتـأخّر شـــيء يدل على الّذي طلع، ولكن قولـه (المغيب) قرينة دالّة على أنّ المراد (الشّمس) من مغيبها إلى طلعتها. وهذا من باب حذف ما لم يجر له ذكر في الكلام وهو كثير في القرآن وفي الشّعر وفي كلام العرب. ومن ذلك أيضاً قوله (ص٥٥٩):

يا ربِّ صـلِّ على النّبي اب نوراً ضَـوَا بي عد سـحاب القبلة ما صـبَّ وْرَوَى

مـا طـاف حجيجـاً بـالعتيق حج ولَوى للمصـــطفى الختم الرســـالـه وقـايدا

والشّاهد فيه (حجّ ولَوَى) لَوَى ماذا؟ وهذا لا يجيب عليه إلاّ من له إلمام بتاريخ الحجيج وعاداتهم ولمن طالع الدّيوان بتمعُّن، وإنَّما المراد (حجَّ ولوى الشّـــالات) وقد تكرّر ذكر ليّ الشّـــالات أو الشّـيلان في كثير من مدائحه، ولك أن تراجعه في مبحث تاريخ رحلة الحج في شعر حاج الماحي.

وقد وقع شـــيء من هذا في مطلع قصـــيدتين متجـاريتين عنده، الأولى قولـه (ص٤٠):

الماحي المكرم أمي ما سطر يا النظر قربوك بالمر

(النّظر) بســكون وضــغط هي (النَّظَرْتَ) أي يا الّذي نَظَرْتَ ولكن نظر ماذا؟ نظر رب العزّة والجلال يوم أسري به وقرّبه منه قاب قوسين،

وأعاد الإشارة في أختها فقال (ص٤٤٧):

الماحي المكرم أمي ما اتعلّم يا الخَتَمْ نورو سابق آدم

(يا الختم) يا من ختمتَ، ختم ماذا؟ ختم المرســلين أو الرّســالة ولكنّه لم يذكره اختصاراً. وهذا وأضرابه كثير.

الجرأة اللُّغويّة:

لم يدرس حاج الماحي اللّغة ولم يقف على تصـــاريفها وتقليبات وجوهها ولكنّه صــاحب جرأة ملحوظة يمضـــي ولا يتوقّف وكثيراً ما يصـــادف إصــراره الصّــواب وربّما عاد هذا إلى ســلامة الفطرة، وربّما خالف المعهود ولا تســتطيع دفع ذلك ولكن تصـــنّفه في خانة الضَّـــرورة. وههنا بعض مظاهر هذه الجرأة الَّتي ربّما دلّت على

براعة وسلامة طبع تُمليها المحبّة في صياغة هذا الأدب الرّفيع الّذي مهما قيل فيه فقد وجد القبول وصادف الرّضا.

يستخدّم حاج الماحي المشتقّات جميعها من مصادر وأسماء فاعلين ومفعولين وصيغ مبالغة ونحوها حسبما يقتضيه السّياق وهو في كلّ ذلك جارٍ على سَنَن العرب ونهج العربيّة. وتعجبه بعض الصّيغ كصيغة (الفاعول) وهي من الصيغ الفخمة فوقعت في ديوانه ألفاظ كثيرة منها. وقد تقع في القصيدة الواحدة سبعة ألفاظ منها كما جاء في مطوّلته (صلّوا يا حبور) (ص٥٩٨) فذكر (النّاطور، التّابور، النّاسور، السّاجور، الكافور، القاشور والطابور) وذكر خمساً من هذه السّبع المتقدّمات وفيها لفظ جديد وهو (الكافور) في قصيدة (طالبات المدينة أم سور) (ص١٣٨). ووقع متفرّقاً في قصائد أخريات. وليس ذلك من الجرأة في شيء وإنّما الجرأة في أنّ شاعرنا يحاول الاسم المشتق أحياناً فيعاسره فيأتي به حسبما يقتضيه المقام. ومن حسن المصادفة أنّه يكون مقبولاً وربّما يرجع ذلك إلى سلامة الحس اللغوي. قال في ختام (القدم بالباك فوق هجين) (ص٦٠٩):

الصّلاة وتسليم كل حين بي عدد علمك يا مبين

للرّسول دخرينا الخزين من عبيدو الماحي الغبين

فالحس والفطرة اللّغويّة السّليمة هدته إلى استخدام (فعيل بمعنى مفعول) (غبين بمعنى مغبون) وهذه الصيغة كثيرة في كلام العرب مثل (جريح بمعنى مجروح وقتيل بمعنى مقتول) ولكنّا لم نسمع (غبين بمعنى مغبون) ولكن فطرة الشّاعر أجرتها على القياس وهكذا جاءت، وهي ضرب من الجرأة. ومثلها صياغة اسم الفاعل من الرّباعي على فعيل، والصّواب صياغته على ((مفعل) مثل (أتعب/ متعب) لكن شاعرنا قال:

أثني بيك يا شافع القليب يا حجاي في اليوم التّعيب

أراد المتعب كما مرَّ.

ولكن الجرأة الحقيقية تظهر في خروجه كثيراً عن المعروف وذهب إلى مثل هذا في (كسيل بمعنى كسلان أو كسول) (ص٢٣٩):

نبينا مو كسيل رقَاد

وجمع (ساحل على سحول) في قوله (ص١٠٦):

بحر ما بتدرك أقياسو العقول يقيفوا الأنبياء على سُحُولْ

أراد أنّ الرّسول (ﷺ) بحر يقف الأنبياء على ساحله، ثمّ اضطرّ للقافية فجمع ساحل على سحول وهو غير مسموع.

ومن الجموع الغريبة الّتي أتاها وارتكبها جمع نوع على (نيعان) في قوله (ص٣٨):

إيش ما تشتهي الأنفس يجيك نيعان

وجمع سائل على سئائيل فقال (ص٢٦٦):

نهار يوم يأتوا سئائيلي

يريد ملائكة السؤال في القبر؛ فجمع سائل على (سئائيل) وهو غير مسموع. وأتى بصيغة مبالغة غير معهودة من الفعل رأف فقال (ص٣٠٥):

قلبك الرءّاف يا محمّدا يرجب اليَخَافْ يا محمّدا

وفعّال هنا لم يسمع ولا يأباه القياس، وقد سمع الرءوف والرأُف والرّئِف، فيما حكاه الكسائي. (لسان العرب/ رأف).

وركّب الضّرورة أيضاً في قوله (ص٥١٩):

حازوا فيك اهل تجارك مطمئنة بانقرارك

فإذا أرادها من الاستقرار والقرار والاطمئنان فهي بعيدة.

وقد ينجح كثيراً في تطويع اللّغة للخروج من مواطن الاضطرار ومن جميل تطويعه للغة قوله (ص١١٥):

ثنيت بالاسمو ميم حا وميم دال

أي محمّد وهذه لطيفة تكفّر عن كثير مما ارتكب من الضّرورات.

ومن لطائف جرأته المقبولة أيضاً أنّه حين مرّ بوصف الطريق ومرّ على ينبع النّخل عاكسته القافية فما كان منه إلا أن رجع إلى اللّفظ المعروف في دياره أعني قوله (ص٣٣٥):

يجونا زمل البدو الحُمُر طلعنا بي ينبع التّمُر

والمعروف أنّها (ينبع النّخل) لكنه دفعته القافية إلى أن يقول (ينبع التّمر) لأنّ النخلة عند الشايقية أيضاً تسمى تمرة ويسمى النّخل عندهم (التّمر) فالمعنى واحد وهو ذكاء وحضور ظاهر. هذا و(ينبع النّخل) قرية من قرى محافظة ينبع بمنطقة المدينة المنورة وهي مركز من مراكز الحج والتّجارة القديمة جدّاً.

وتظهر جرأته المحبوبة المتقبّلة في التّعريب والتّوليد والاشتقاق. فقد ولّد من لفظ (التّكارير) وهم القادمون من غرب أفريقيا ولّد منه صيغاً وأفعالاً واستخدامات جرت في شعره منها قوله (ص١٣٨):

سألتك يا كريم يا نور تَحَلْحِل قيدي أقوم تكرور

فجعلها هيئة وحالاً كأنّه قال أقوم ماشـياً على أقدامي. ومن امثلة الهيئة أيضـاً قوله (ص٥٠٩):

مـن جـرّارو تـكـروريـة في الرّيف يسـر المـاهيـة

وأحسبها (جرَّالُو).

ومثلها قوله (ص٣٥٢):

فـي الـثـلـث الأخـيـر نـنـجـر تـكـاريـر

أي نمشي في ذلك الوقت الباكر كما تمشي هذه الجماعة.

وهو في كل ذلك يريد ان يسـتقصـي أنواع السّـير، فالمعروف عندنا أنّنا نقول (فلان مرق أقروب) أي لم يركب دابّة بل سعى على قدميه، وقد قالها حاج الماحي في صفة الرسول (ﷺ)، (ص١٣٤):

يَخْصِـف نعلو يرفـا الثوب يردف خلفو يسـعى اقروب

ويقول أهلنا (عَدَّى الدّرب ساساقه) إذا أكثر من المشي جيئة وذهابا، وذكرها حاج الماحي أيضاً يصف بها حجاج غرب أفريقيا فقال (ص١٤٤):

حبّك في قلوب الأمّـة حراقُ جاب تكرور مَدَرْمِسْ يَمْشـى سَـاسَـاقُ

فذكر الساساق وأضاف الدّرمسة وهي أيضاً ضرب من السّير السّريع القوي.

هذا وقد سـئل الشـايقي: نزلت البلد؟ فقال: لا لا .. لي تسْـعِي سـنين، أسـوّي الدَّرب ساساقي؟!

ويشـتق حاج الماحي كعادته في الجرأة مشـتقّات كثيرة من هذه المواد اللّغويّة فاشتق اسم الفاعل من التكارير فقال (ص٣٣٥):

متكررين بالطّريقِ قُر

واشتق أيضاً اسم الفاعل من كثير من الكلمات النوبية فقال (ص٦٣٦):

جملـة مَمَسِّـرين سُـكَّـانـا دخلـت مُونَـه مو وسـخـانـه

(ممسِّـر) اسـم فاعل مشـتق من كلمة (المسـور) النّوبية. وقس على ذلك قوله (ص٢٢٠):

مثل العريس الفي سبوعو مَلَكَّب

و(ملكب) اسـم فاعل من الكلمة البجاوية (لكيب) وهي الكُجْرة والسِّـتْر. وقال أيضاً (ص٢١٨):

ندخل جناناً خيرا باهي متَسِّب

و(متسب) اسم فاعل من التساب وهو الفيضان، أي خيرها فائض.

وقد يولّد حاج الماحي من الألفاظ النّوبيّة والمعرَّبة أفعالاً كما صـنع في قوله (ص٢٤٥):

حُزْناً اطَّامَنَّا بي سرور ديْونَّا

فالفعل (دَيْوَنْ) من الدّيوان بالفارسيّة وهو مكان جلوس القوم واجتماعهم. وفَعَلَ الأمرَ نفسه مع لفظ (كبدق) النوبية وتعني الغطاء فقال (ص٦٤٩):

في رسولي الخير محقّق ظنّي فيه علي يَكَبْدِق

أي يستر ويغطي.

ظواهر لغويّة وصوتيّة:

في عامّيتنا ألفاظ تدخل فيها الرّاء، فإذا رقّقتها أعطت معنى وإذا غلّظتها أعطت معنى آخر مثل (الرَّاحة) بالتّفخيم وهي ضد التّعب، و(الرّاحة) بالتّرقيق وهي باطن الكف، وقد مضى الحديث عنها ولكن استوقفتني كلمة أخرى أو حرف آخر هو (القاف) الذي إذا نطقناه بصفته الفصحى كان له معنى وإن نطقناه بالقاف المعقودة القريبة من الكاف مثل (قوقى) تولّد معنىً آخر؛ قال حاج الماحي (ص٧٧):

إشما تفعل المكّاره قاعده الحفَظه لا ستقرارا

يتكلّم عن النّفس، ويريد بالحفظة رقيب وعتيد، والشّاهد في قوله (استقرار) بالقاف المعقود كالحرف (جي) الإنجليزي (go): والاستقرار هو حملها على الاعتراف حتّى تقر. فهي هنا الإقرار بما كسبت والاعتراف، وهي بالقاف المعقودة، أمّا لما كانت الكلمة بالقاف الفصيحة فهي السّكون والطّمانينة فتامَّل!

الحذف:

يقول أهلنا (فلان جاب قافتو فوق فلان) يريدون (قافيته) فيحذفون الياء والياء دائماً عُرضة للحذف والإضافة هي مع أختيها الواو والألف. وقد ورد مثل هذا عند حاج الماحي إذ يقول(ص٢٢٧):

طب القلوب عافة نفوسنا وراحتا النّور البلدان وسرَّج ظُلمتا

فقوله (عافة نفوسنا) أي (عافية نفوسنا) ولو قالها لما أباها عروض الأبيات ولكنّها لغته، رجع إليها فقال (عافة) وهو يريد عافية، ومثلها (ص٥٠٨):

شالين هارباً هنديا

هذا إذا لم يكن تصحيفاً صوابه (سالِّين). ومثلها (راجات) في قوله (ص٦٠٥):

حبايب وراجات حبيبن

أراد (راجْيَاتْ) أي: منتظرات؛ فحذف الياء.

وكذلك قوله:

طوبى للجِنَاتْ بدّروا المسور

أراد (الجِنْيَات) فحذف الياء.

إمالة الشّايقيّة:

مررنا بالإمالة المشهورة في لغة العرب وعليها قراءات القرآن مثل (النار والنير) و(النّهار والنهير) أما إمالة الهاء أو تاء التّأنيث فهو مذهب عربيّ قرأ بها الكسائي في نحو (خليفة/ خليفي) بالإمالة، والشوايقة يجعلونها ياء محضة فيقولون (خليفي) وردت عند حاج الماحي بكثرة واستفاد منها في القوافي كقوله (ص٢٩٩):

غفور لي عبدو إن رادلو يحسِّن ظَنّو يختم بالشّهادِي

أرادَ (السّعادة والشّهادة) فأمال. وهذا أكثر من أن يتابع، ففي هذه القصيدة وحدها أكثر من عشر كلمات (المكاده، والولاده، زياده، الجمادا الحساده، سداده) وغيرها. أمالها كلها واستفاد منها في القافية كما استفاد من كثير من مثيلاتها. (١٦٨/ ٤٩٨/ ٦١٥/ ٣٥٠...).

الإبدال:

ومن الإبدال المشهور عنده وضع النّون مكان التّاء كما قالوا (ما مندلي كريمي) وأصله (متدلي). وردت عند شاعرنا فيما يتعب حصره كقوله:

٣١٥-**جمالنا انسهلت من وادي قوس**

٣٥٤-**نمرق مع الخبير نندلى في القصير**

ومنها (انسامعوبا/ ٥٣٥) و(انزعزع/ ٤٢٠) و(ينسبقوا/ ٧٢٧) وهذا كلّه ممّا توضع فيه التّاء مكان النون في غير لغة شاعرنا.

كلمات كالحديثة:

يقول حاج الماحي:

٤٩٨- **كون بالمرة جوفك طاوي أخد التيه كأتّك هاوي**

٣٩٦- **الماحي الفعالو بدوع بين ناساً عصاة مزروع**

٢٦٤- **نبياً شرعو ذكي عديلي صريح ما فيه تحاويلي**

٢١٢- **جاب شرعو الولاهو حكم سياسة.**

ألا ترى أنّ الهاوي هي أخت المحترف، كأن سفرته رحلة وهواية، والمزروع في لغة عناصر الأمن، والتّحاويل في الطرق (تحويلة) والسياسة المعروفة عندنا. الا تراها كانها من ألفاظ عصرنا؛ مع أنّ بين عصرنا وعصره أكثر من مائتي سنة!!!

أمهات:

وهذه كُنىً (جمع كنية) وقعت متفرقة في البحث آثرت أن أجمعها هنا لأنّ جمع المتفرقات في باب يظهر مقدارها وعظمة فحواها ويبرز جهد الشّاعر واقتداره. وحاج الماحي من المغرمين جداً بالكنية بـــ (أم كذا) حتّى زادت في الديوان عن خمسين كنية؛ فكنَّى عن مكّة فقال: أم حطيم، أم جبال، أم بيبان، أم حجيج، أم رمال وأم ستور وهلمّ جرّا.

وكنّى المدينة النّبويّة : بأم قُلّة، أم قُلل، أم منار، أم كسا، أم كساوي، أم سوق، أم كتب، أم جلبة، ام خضار، أم سور، أم كوكب، أم بيبان، أم أركان، ام هيد، أم نخل، ام نخيل، أم زباد، أم فوايد، أم بنيان. ألا ترى محبّة المدينة وكثرة كناها، على ساكنها أفضل الصلاة والسّلام.

وكنى الجنّة فسمَّاها: أم قصور، ام عجو، أم نهور عسل، أم نعيم، أم نعيماً كوم، أم قطوف، أم لكايب، وأم قوارير.

وكنّى النّار فقال: أم لهب وأم لهيب، أم سنام، أم زبانية، أم زفير، أم سعير، أم شرار، أم طِبْق.

وكنّى الدُّنيا فقال: أم قدود، وأم الجور، وهو الظّلم.

وكنّى السّفينة بأم دير، والسّاقية بأم فاشوق، وذوات الروح من المخلوقات: أم روح: وأم روح جميع حتّى البِسَسُ.

ولديّ الشّواهد على ذلك، وأضربت عنها حذر الإطالة، ولأنَّ معظمها أو جلّها مرّ في عرض الدّراسة وطولها.

وهكذا يطول الأمر. ولو أراد مجتهد أن يؤلّف سفراً كاملاً عن لغة حاج الماحي لأمكنه ذلك وما عاصاه، ولكن تكفينا من الزّاد البُلْغَة.

-